

الغريزة الجنسية والجندر

نتائج من العلوم البيولوجية والنفسية والاجتماعية

لورنس س. ماير، بكالوريوس في الطب والجراحة، دكتوراه

وبول ر. مك هيو، دكتور في الطب

المقدمة

قلة هي المواضيع المعقدة والمثيرة للجدل مثل الميل الجنسي للإنسان وهويته الجندرية. فهذه القضايا تلامس أفكارنا ومشاعرنا الأكثر حميمية، وتساهم في تحديد هويتنا كأفراد وككائنات اجتماعية. هذا ويمكن للمناقشات حول القضايا الأخلاقية التي يثيرها موضوعا الميل الجنسي والهوية الجنسية أن تصبح ساخنة وشخصية، كما أن قضايا السياسات المرتبطة بها تشكل أحيانا موضوع جدل كبير. غالبًا ما يتذرع المتنازعون والصحفيون والمشرعون في هذه المناقشات بسلطة العلم، أضف إلى ذلك أننا نسمع في أخبارنا ووسائل التواصل الاجتماعي التي نستخدمها وفي ثقافتنا الشعبية الأوسع ادعاءات حول ما "يقوله العلم" بشأن هذه القضايا.

يقدم هذا التقرير ملخصًا دقيقًا وتفسيرًا مواكبًا للتطور حول عددٍ كبيرٍ من النتائج الأكثر قوة التي توصلت إليها العلوم البيولوجية والنفسية والاجتماعية في ما يرتبط بالميل الجنسي والهوية الجندرية. وفي إطار هذا التقرير، ندرس مجموعة هائلة من النصوص العلمية في التي تغطي عددًا كبيرًا من التخصصات. ونحاول الاعتراف بمحدودية البحث وتجنب الاستنتاجات المبكرة التي من شأنها أن تؤدي إلى التفسير الزائد للنتائج العلمية. وبما أن الكتابات ذات الصلة تزخر بالتعريفات المتضاربة والغامضة، فنحن لا نكتفي بدراسة الأدلة التجريبية فحسب، بل نغوص في مشاكل المفاهيم الكامنة فيها. بيد أن هذا التقرير لا يناقش القضايا المتعلقة بالأخلاق أو السياسة، بل ينصب تركيزه على الأدلة العلمية، وما تظهره وما لا تظهره.

نبدأ في القسم الأول دراسة نقدية حول ما إذا كانت المفاهيم مثل التباين الجنسي والمثلية الجنسية والثنائية الجنسية تمثل خصائص بشرية متميزة وثابتة ومحددة بيولوجيًا. وكجزء من هذه المناقشة، نعالج الفرضية الشعبية القائمة على مفهوم "ولد هكذا"، والتي تفترض أن الميل الجنسي البشري فطري بيولوجيًا. بالتالي، ندرس الأدلة التي تركز عليها هذه الفرضية في عددٍ كبيرٍ من

التخصصات الفرعية للعلوم البيولوجية. ونستكشف الأصول التنموية للانجذاب الجنسي، وإلى أي مدى قد تتغير هذه المعالم على مر الزمن، والتعقيدات الكامنة في دمج هذه المعالم في الهوية الجنسية للشخص. وبالاعتماد على أدلة من دراسات توأمية وأنواع أخرى من الأبحاث، نعمل على استكشاف العوامل الوراثية والبيئية والهرمونية. كما نستكشف بعض الأدلة العلمية التي تربط علم الدماغ بالميل الجنسي.

أما في القسم الثاني فندرس الأبحاث المرتبطة بالنتائج الصحية من حيث صلتها بالميل الجنسي والهوية الجندرية. إذ إن خطر تعرض المثليات والمثليين وثنائيي الجنس ومغايري الهوية الجندرية لنتائج سيئة على الصحة البدنية والعقلية، هو خطر ملحوظ باستمرار وأعلى من خطر تعرض السكان عموماً للنتائج عينها. وتشمل هذه النتائج الاكتئاب، والقلق، وتعاطي المخدرات، وأكثرها خطورة: الانتحار. ففي الواقع، يقدر أن مستوى محاولات الانتحار في صفوف مغايري الهوية الجندرية في الولايات المتحدة بـ 41 في المئة، وهي نسبة أعلى بعشر مرات مما هي عليه في صفوف عامة السكان. كأطباء وأكاديميين وعلماء، نعتقد أنه لا بد من إجراء جميع المناقشات الواردة لاحقاً في هذا التقرير في إطار مسألة الصحة العامة هذه.

إلى جانب ذلك، ندرس بعض الأفكار المقترحة لتفسير هذه النتائج الصحية التباينية، بما في ذلك "نموذج الضغوطات الاجتماعية". لكن لا يبدو أن هذه الفرضية، التي تعتبر أن عوامل الضغوطات الاجتماعية مثل الوصم والتحيز تسبب نسبة كبيرة من المعاناة الإضافية التي لوحظت في صفوف هؤلاء الأشخاص، لا تقدم تفسيراً كاملاً لأوجه التفاوت في النتائج.

وكما يحقق القسم الأول في فرضية أن الميل الجنسي ثابت من خلال أساس بيولوجي سببي، يتناول جزء من القسم الثالث مسائل مماثلة متعلقة بالهوية الجندرية. فالجنس البيولوجي (الفئات الثنائية من الذكور والإناث) يشكل جانباً ثابتاً من الطبيعة البشرية، على الرغم من أن بعض الأفراد الذين يعانون من اضطرابات في النمو الجنسي قد يحملون خصائص جنسية غامضة. في المقابل، تشكل الهوية الجندرية مفهوماً اجتماعياً ونفسياً غير واضح المعالم، وتقل الأدلة العلمية التي تشير إلى أنها سمة فطرية مثبتة بيولوجياً.

يدرس القسم الثالث أيضاً عمليات إعادة تحديد الجنس والدليل على فعاليتها في التخفيف من الاضطرابات العقلية التي يعاني منها عدد كبير من الأشخاص الذين يعتبرون أنفسهم مغايرين للهوية الجندرية. بالمقارنة مع السكان عموماً، يستمر مغايرو الهوية الجندرية الذين خضعوا لعملية جراحية في التعرض لخطر كبير من الأمراض العقلية.

الجدير بالذكر أن مصدر قلق خاص على وجه التحديد يشمل التدخل الطبي للشباب غير المتطابقين جندياً. إذ يتلقون بشكل متزايد علاجات تثبت الجندر الذي يشعرون به، ويخضعون حتى للعلاج بالهرمونات أو لتعديلات جراحية في عمر مبكر. إلا أن غالبية الأطفال الذين يشعرون بالتطابق مع جندر لا يتماشى مع جنسهم البيولوجي لن يشعروا بذلك عند بلوغهم سن الرشد. لذا نحن نشعر بالقلق والانتزاع من شدة بعض التدخلات غير القابلة للعكس التي تجري مناقشتها علناً وتستخدم على الأطفال.

لا يمكن شرح الميل الجنسي والهوية الجندرية بنظريات بسيطة. فهناك فجوة كبيرة بين الفناعة الثابتة التي تقوم عليها المعتقدات حول هذه المسائل وما يكشف عنه التقييم الواعي للعلم. في مواجهة هذا التعقيد وغياب الوقائع المؤكدة، لا بد لنا من التواضع

بشأن ما نعرفه وما لا نعرفه. ونحن نقر طوعاً بأن هذا التقرير لا يشكل تحليلاً شاملاً للمواضيع التي يتناولها ولا يقدم الكلمة الأخيرة فيها. فالعلم ليس بأي حال من الأحوال السبيل الوحيد لفهم هذه المواضيع الفائقة التعقيد والمتعددة الجوانب، إذ يمكن استقاء الحكمة والمعرفة من مصادر أخرى، بما في ذلك الفن والدين والفلسفة والتجربة الإنسانية الحية. كما أن شقاً كبيراً من معرفتنا العلمية في هذا المجال لا يزال غير مؤكّد. مع ذلك، نقدم هذه اللوحة عن الكتابات العلمية على أمل أن توفر إطاراً مشتركاً للخطاب الذكي والمستنير في التبادلات السياسية والمهنية والعلمية، وأن تضيف إلى قدراتنا كمواطنين معنيين على تخفيف المعاناة وتعزيز صحة الإنسان وازدهاره.